علماء العرب

١٠

الإدريسي

أبو الجغرافيا



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام للترجمة والنشر

(١٠)

الإدريسي
أبو الجغرافيا

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ ١٩٨٨

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠١ يوان



سليل الأَشراف

في نورِ الشمس ، وضِياءِ القمر ، كان الفتى « محمد » يرقُب السفنَ رائحةً غاديةً في البحرِ الأبيض ، يميلُ بعضُها إلى مَرْسَى « سَبْتَة » ، ويُواصِلُ بعضُها رحيلَه شرقاً إلى مَوَانِي الإسكندرية ، واللاذِقِيّة ، وعَكّا ، وغرباً عابراً بوغازَ طارق إلى الموانِي الغرْبيةِ بأوروبا وأفريقيا .

كان « محمد » قد حفِظ القرآن ، وعرَف مبادِئَ الدين ، ويشعُرُ دائماً ، فى أعماقِه ، أنه سلِيلُ أسرةِ الأدارسة الأشراف ، الذين أنشَأوا لهم دولةً بالمغرِب فى عصرِ هارُونَ الرّشيد ، ودولةً بالأندلسِ ، هى دولةُ بنِى حَمّود ، وكانَ يُدْرِك ، فى العِقْدِ الثّانِى من عمره ، أن مجدَ آبائِه يُوَلِّى ، وتغرُبُ شمسُه ، مثلما تغرُبُ شموسُ دولٍ عربيةٍ كثيرة ، فى المشرقِ والمغرِب . وأنه لم يبقَ لأحدٍ من الأدارسة من طريقٍ سوى طريقِ العلم ، ولقاءِ العلماء ورُؤيةِ أرْضِ الله .

وكثيراً ما كانَ محمدٌ يتجوّل فى أنحاءِ « سبتة » . وكانتْ « سبتة » قائمةً فوقَ هَضَباتِ بشبهِ جزيرة ، يحيُط بها البحرُ من ثلاثِ جهات ، على بعدِ عشرةِ أميال ، جنوبِىّ جبلِ طارق . يرَى مرْسىَ مينائِها الذى يقُولُ البحارةُ إنه لا مثيلَ له بينَ مراسِى وموانِى السُّفُن فى البحرِ المتوسط ، ويرَى سُورَها الحجرِىّ ، وبيوتَها الحجرِيّة ، ومآذِنَ مساجِدِها ، وطُرُقاتِها الكثيرةِ التّعرج ، وكأنّها قد استعدّت أبداً لمواجهةِ الغُزَاة فى كلِّ منعطَف .

فيما مضَى ، كان اسمُ « سبْتة » هو : « سابيتُوم » ، عندما أنشأَها الرّومان كقلْعةٍ عسكرية . وفيما مضَى ، قبلَ

أربعةِ قُرُون ، انتزَع المسلمونَ بقيادةِ « مُوسَى بنِ نُصَيْرٍ » هذِه المدينة ، من أيدِى حُكّامِها من « القُوط » الأسْبَانِيِّين . ولقد ظلّت هذِه المدينة موضِعاً للنِّزَاع بينَ حُكّام الأندلس ، وحُكام المغرب . وبلغَ من عنايةِ الخليفَةِ الأندلسِىّ « عبدِ الرحمنِ الناصِر » بِهَا ، أنه شَيّد حوْلَها سوراً منيعاً مِنَ الحِجارَةِ .

وفِى هذِهِ المدينةِ ، وُلِد « محمدُ بنُ محمدٍ بنِ عبد الله » الإِدْرِيسِىّ . عامَ أرْبَعُمِائَةٍ وثلاثةٍ وتسعينَ هجرية ، ألفٍ ومائةٍ ميلادية ، وعاشَ طفولَتُه وصِبَاه ، وشَبَابَه الأول ، يصعَدُ هِضَابَها ، ويرَى أمْوَاجَ البَحْر ، وزُرْقَةَ السماءِ ، ويَرْنُو إلى الآفَاق الفسِيحةِ فى مدَى البحرِ والصّحراء .

وصية أب

كان محمدٌ قد بلغَ من العمرِ ستةَ عشَرَ عاماً ، حينَ سَمِع أبيه يقُولُ لهُ :

ـ حانَ الوقت يا بُنَىّ ، لترحَلَ إلى مدينةِ قُرْطبةَ بالأندلس ، وتَعرِفَ بها ، فى جامِعِ قرطبة ، علماً أكثَرَ وأغْزَر ، على أيدِى العُلماء .

وأدركَ محمد أن حُلْمَه بالأَسْفَارِ يُوشِك أن يتحقّق ، وأن تَوْقَه إلى الاستقلالِ بأمرِه يُوشِك أن يبدَأ . وقال له أبُوه :

ـ تَذّكر دائماً يا محمد أنّكِ من الأشراف ، لأنك من الأدارِسَة .

فقال له محمد :

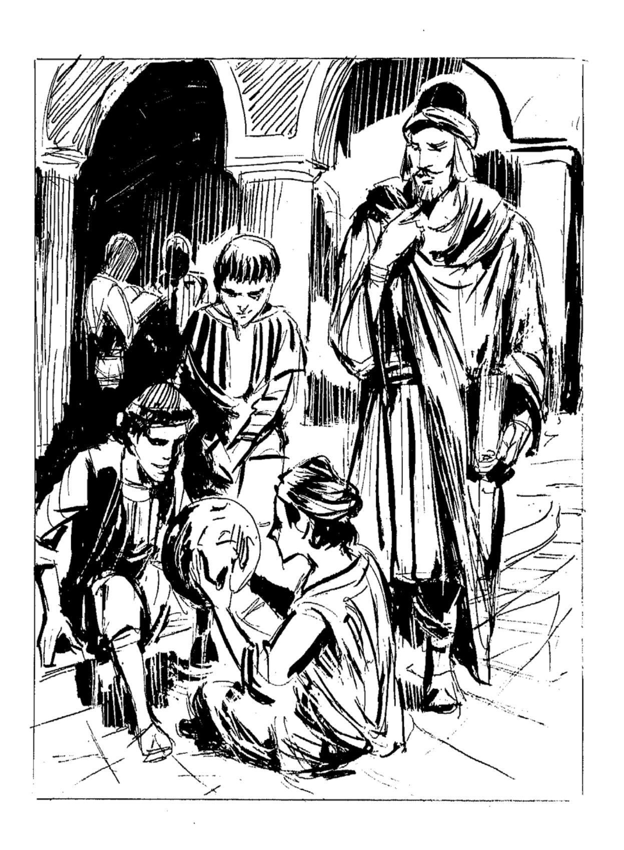
ـ أعرِف ذلك . فجدّى الحادِى عشر ، اسمُه إدريس ، وهو ابنُ الحسنِ بنِ الحسنِ بنِ الإمامِ علىّ بنِ أبى ِ طالب .

ومسَحَ أبُوه بيدِهِ على رأْسِه ، وقالَ لهُ بحزْمٍ :

ـ تخلَّق إذنْ بخُلُق الأَشْرَاف حيثُما كنت . انجُ بنفْسك من السّياسَةِ ، واطْلُبْ مجْدَ العِلم ، ولا تقبلْ لنفسك عملًا هو دونَ قدرِك ، ولا تجلسْ مجلِساً هو دونَ فضْلِك ، ولا ترْضَ بمنزلةٍ هى دونَ منزلتك .

طالب علمٍ رحّالة

نزلَ محمدٌ مدينةَ « قُرطبة » . كانت ما تزالُ حاضرةَ العلم والثقافةِ غربِىّ العالَمِ الإسْلامى ، وواحةً للمعرفةِ والفنّ فى أوروبا بأسْرِها . وقابلَ محمدٌ أقاربَ له من أقاربه



العديدِين فى قُرطبة ، فأضافُوه شهوراً ، ثم أسكَنُوه بيتاً بهَ بُستانٌ عامرٌ بأشجارِ النخيلِ واللّوزِ والزّهور . وأخذَ يتردّد على حلْقاتِ مَسْجِدَ قُرطبةَ الجامع ، ويجلِسُ إلى العلماء وبينهُم فقهاءُ ومحدِّثون ، وفلاسِفة ، ورياضِيّون ، وجُغْرافيّون ، وفلكِيّون . ودُهِش محمد إذا رأى أطفالَ المدارِس ، يدرسُون الجغرافيا على خرائِط ، ويديرُون بين أيدِيهم كراتٍ أرضِيّة ، عليها اليابِس والبَحْر ، والأقاليمُ والمُدن .

وتتاحُ لمحمد فُرَصٌ للانقطاعِ عن الدرسِ شهراً أو شهوراً ، فيشرَعُ فى الرحلةِ والسفر ، يجوُب ديار الأندَلس (أسبانيا والبرتغال الآن) مدنَها وقُرَاها وجِبالَها وأنهارَها ، يرَى كلّ شىء بعينيْه ، ويسمَع كلّ شىءٍ بأذنيْه . زارَ مدينةَ « لِشْبُونة ».، ورأى حَصْن المعْدِن المقابِلَ لها ، والمرآةَ التى تدُور أبداً فى قِمّة بُرْجِها ، تعكِس ضَوْءَ الشمس . بل لقدَ عبرَ البحرَ وزارَ سواحِل انجلتِرا الغربية ، واجتازَ الجبالَ والأوْديةَ ، وزارَ سواحلَ فرنسا الغربيةِ والجنوبيةِ . وتعلّم أطرافاً من الحديثِ بالفِرنسية والانجليزية واللاتِينيّة . وكانَ أبداً يصحبُ معَهُ خادِماً يدبّر له أمرَه ، وجاريةً تطهُو له طعامَه .

وكلّ عام كانَ « محمد » يعودُ إلى « سَبْته » يرىَ أهلَه ،

ويتزوّد بالمال ، ويسارِعُ بالسّفر ، يجوبُ المدائنَ والقُرَى فى المغربِ العربِيّ الكبير ، قبلَ أنْ يعودَ إلى قُرطبةَ مرةً أخرى .

وعاماً بعد عام ، كانتْ نفسُ « محمد » تراوِدُه ، وهو فى قرطبة ، وهو فى « سبته » ، لزيارةِ جزيرةِ « صقلية » ، وكأنّ شيْئاً خفِيّا يجذِبُه إليها . وكانَ يعلمُ أن قبائِلَ « النّورمان » ، قد احتلّتها ، إثْرَ غزوِها للجنوبِ الإيطالى ، قبلَ أربعِين سنَةً من ميلادِه ، وأن له فيها أقارِبَ ، نزحُوا إليها ، إثرَ انهيارِ دولة بنِى حمّود من الأدارسة بالأندلس ، لكنه كان يخشى القيام بهذه الزيارة ، وغزاة النورمان يحتلّونَها ، ويصادِرُون أراضِىَ الفلاحِين المسلمين فى قُرَاها .

الخوف فى الوطن

وعادَ محمدُ إلى سبته ، وقد سئِم الإقامةَ فى الأندلس ، ولم يعُد ثمّةَ ما يطلبُه من العِلْم بِها ، ولا مِنَ الأماكِنِ والمدنِ ما يزوره . وكان قد بلغَ مِن العمرِ سبعا وثلاثِينَ سَنَةً .

وعكَف محمد على أوراقِه ، يراجِعُ وينظِّمُ ما كتَبه فى أسفارِه عن المدائِنِ والقُرى التى زارَها ، والأنهارِ التى

عبَرها ، والودْيان التي اجتازَها ، والجبالِ التي رَقَى سُفُوحها وذُرَاها . ويحكِي لأهلِ سبْتةَ العلماءَ منهم وغيرَ العلماء عجائِبَ الأخبارِ والأسْفَار .

ولم يكدْ يمرُّ عامٌ على مُقامِه فى سبته ، حتى راوَدَه الحنينُ إلى الأسْفار ، وقعدَت بهِ عن الارتحالِ قِلّةُ المال ، فقد ودَّع أبواه الدّنيا ، وتفرّقَ إخوتُه فى بلادِ المغرب ، وجزرِ البحر المتوسط ، سعْياً وراءَ مطالِبِ العيْش ، وخوفاً من الاتهامِ يوماً ، بأنهُم يسعَوْن ، مثلَ أجدادِهم ، لإقامَةِ دولةٍ من دولِ الأدارسة مرةً أخرى ، فى المغربِ ، أوفِى الأندلس . وكان يُدْرِك أنّ عليه أن يرحَل مثلمَا رحَلُوا ، خوفاً من الوِشَايَةِ والاتِّهام ، بأمرٍ لم يُفكّرْ فيهِ لحظة ، ولكنْ ، أينَ يذهب ؟ وكيْف ؟ ومن أيْن المال ؟ وكيْف يأمَنُ من طولِ البقاء والكلُّ يلقبُه بلقَب : « الشرِيفُ الإدْرِيسى » .

ووفَد إلى سبْتة ، قَرِيبٌ له ، مقيمٌ بصقلية ، اسمه : « أبُو عبْد الله محمدٍ بن أبِي القاسم بنِ حمّود » . وجاءَ قريبُه لزيارَته ، وجلسَا معاً فى شُرْفَةٍ بقصْرِ أبِيه ، يحدّثُه هذا عن أسفارِه ، ويحدِّثُه ذاكَ عن صقليّة ، وكأنّه كانَ يقدّم له طوْقَ النجاةِ ، بحديثِه عن صقلية .



بين ملِكٍ وملِك

كان العرَبُ قد فتَحوا صَقَلِيّةَ ، واستقرُّوا بها مائِتَيْنِ وخمسِينَ سنة ، وقدّموا للحياةِ على أرْضِها عشْرةَ أجيال ، وجعَلُوا من صقليّة ملتقًى لِحضارتَيْ الشرقِ والغرب ، والعالمِ القديمِ والجديدِ ، وصارَتْ صقليةُ على أيديهم واحدةً من

النوافِذِ الكبرى ، لإخراجِ أُوروبا من ظُلُماتِ العصورِ الوُسْطى .

وجاءَ النّورْمَان الغزاةُ ، وفتَحوا فيما فتَحُوا جزيرةَ صقليّة في البحرِ المتوسِّط ، قبلَ أن يُولد الشريفُ الإدريسى بأربعين سَنة .

ولقد فرّ عديدٌ من العرَب المسلمين من الجزيرةِ إثرَ الغزْوِ النورمانى الذِى قادَهُ القائِدُ رُوجَر ، ونصَب نفسَه مَلِكاً مؤسّسًا لدولةِ النّورْمان فى صَقَلّية . لكنّ أكثَرَ العرَبِ المسلمينَ أصرّ على البقاءِ في الجزيرَةِ التى كانتْ لهم ولآبائِهم وأجدَادِهم ، واحتملُوا صوراً من الاضْطّهادِ والمُصَادَرَةِ للأَراضِى ، خاصّةً فى شمالِ صقليّة ، على أيدِى رجالِ الدّين المسِيحى ، وأنصارِهم من القُوّاد النُّورْمَانِيِّين .

وجاء حكمُ ابنه الملك روجر الثانى ، فسَارَعَ بالمسَاوَاةِ فى الحكم بين الرّوم والفِرنجِ الفاتِحين ، والعَرَبِ سكانِ الجزيرةِ ، ومنَحهم الحرياتِ الدينية والاقتصادية التى كانت لهم من قبل ، وأوْقفَ مُصَادراتِ رجالِ الدينِ للأَراضِى ، بل وشجّعهم على الاستثمارِ للأَمْوَالِ ، والتقدّم العِلْمى .

ويلغَ من حِرْصِ عُقَلاءِ النّورْمَان ، على بقاءِ العرَبِ

المسلمين فى الجزيرةِ ، علماءً وتجاراً ومزارعِين وحِرفِيِّينَ ، أنهم تعلّموا العربيةَ قراءَةً وكتابةً ، وصارُوا يطرَبُون لِسمَاعِ شعْرِ العربيةِ وأدبِها . وظلت العربيةُ هى لغةُ الدواوِينِ ورسائِلِ الحاكمين ، وصارتْ النقودُ تُسَكّ وعليها شارتَا الإسلام والنّصْرانية ، وعبارةُ « لا إله إلاَّ الله مُحمدٌ رسول الله » . وكانتْ علامةُ المُلك بالعربيةِ هى : « الحمدُ لله حقَّ حَمْدِه » . ولقد أبْقَى النّورمان على حُكّامِ المسلمين وقوادِهم فى مناصِبهم ، مع شيُوخِهم وقُضَاتِهم ، وظلّتْ موارِدُ التجارةِ فى يدِ كبارِ رجالِ الأعمالِ من العَربِ المسلمين .

ولم تخْلُ هذِه المعاملةُ للعرَب ، من ضيقِ رجالِ الدِّين النُّورمانيين بالملِكِ رُوجَر الثانى ، حتى اتّهموه بأنّه اعتنقَ دينَ الإسلام ، وراحُوا يدلِّلون على ذلِكَ بحمايتِهِ لهم ، ولينِهِ فى مُعاملتِهم ، وإنشائِه ديواناً للمظالِمِ يَنْظُرُ فى شَكَاوَى المظلومِينَ منهم ، وإبقائِه على ديوانِ الطِّراز المشْهورِ بصُنعِ أرْدِيَةٍ حرِيريّة جميلةٍ ، مُزَيّنةٍ بِزخارِفَ عربيةٍ إسْلامِيّة ، وحِرْصِه على أن يضَع فَوْق ثيابِه الملكيةِ عباءَةً مُطرَّزَةً بزَخَارِفَ عربِيّة ، ومُجَالستِه لعُلماء العرب المسلمينَ كلّ ليلة ، يتحدّث إليهم فى أمُورِ العِلْمِ والمعرِفة ، وتَشبُّهِهِ بملوكِ الشرقِ فى بلاطاتِهم وقصُورِهم .

دعــوة مفتوحة

وقالَ أبُو عبد الله للشريفِ الإدريسى :

ـ هؤلاءِ الجُهَلاء من النّورمان لم يُدْرِكُوا قطّ ما يُدْرِكه الملك رُوجَر الثانى ، فبِدُون العرَبِ فى الجزيرةِ ستعُودُ الجزيرةُ إلى التّخلف . والملِكُ روجَر الحريصُ على تثقيفِ نفْسِه بنفْسِه ، والذى يعرِفُ ثمراتِ وُجُودِ العرب فى صَقَلِّية ، يعرفُ أن جزيرته ملتقى حضارتَيْن : إحداهُما سوفَ تغرُب شمسُها ، والأُخْرى تقترِبُ من لحظَةِ الفَجْر ، وأنّ عليه أن يكونَ موئِلاً وملاَذاً للحريةِ فى جزيرةِ صقلية .

ثم قالَ أبُو عبد الله لهُ :

ـ وما راءٍ كمنْ سَمِعا . تعالَ إلى صقليّةَ لترَى بعينَيْك صِدْق ما أقولُه لك . وكثيرُون من الأَدَارِسَةِ مُقرّبُون من الملِك رُوجر الثانى ، مِثْلما أنّه هو نفسُه مقرّبٌ عِندَه .

فقال الشريفُ الإدريسِيّ له فى دَهْشَة :

ـ كيف ؟ ألا يخافُ منكمُ أن تسعَوْا إلى إقامة دولة للأدارسةِ فى صقليّةَ ؟

فضحِك أبُو عبد الله ، وقال :

ـ إنهُ أكبَرُ وأقْوَى من أنّ يظُنّ ذلك . فالحكمُ قد استقَرّ للنّورمان فى صقلية لزمنٍ طويلٍ قادِم ، ولأَنْ يكُون الأَدَارِسَةُ بالقُرْب مِنْه ، فى صقَليةً ، يُغدِقُ عليهِمْ العَطَاء خيرٌ من أنْ يكونُوا بعِيدِين عنه .

وصمَت الرجلان فى ليلَةٍ قمرية ، تنعكِسُ فيها أنوارُ القَمَر على ذُؤَابات (قِمم) أمواجِ البَحْر ، وقطَعَ أبُو عبد الله الصمتَ بقولِه :

ـ سأعُود إلى صقلية . وفكّر فى القُدُوم إلينا . ولسَوْف نتراسَلُ إلى أنْ نلتَقِىَ .

كانَ أبُو عبد الله يؤثِرُ ألاّ يصحبَ الشرِيفَ الإدرِيسىّ معَه فى عَوْدتِه إلى صَقلِيّة ، وأن يكونَ قدومُه إلى صقليةَ بدعوةٍ له من الملك رُوجر الثانى نفسِه ، بعدَ أن يكونَ قدْ حدّثه عنْه ، فينزلَ إلى صقليةَ كشريفٍ من الأشْرَاف ، وعالِمٍ من العُلماء .

البـــداية

قال الملكُ رُوجَر الثانى لأبِى عبدِ الله فى دهْشَةٍ :

ـ كيف يكُونُ صاحِبُكَ بهذَا العِلمِ بِالبُلدانِ والنباتِ والطبّ ، ولا تأتِى بهِ مَعَك إلينا ؟

فقالَ لهُ أبُو عبدْ الله :

ـ أيُّها الملك . ما كانَ لِمثْلِه أنْ يأتِيَ وحدَه إلى بلادِك . وإن رأيْتَ حاجَتَك إليهِ ، فادْعُه بنفسِك ، حتّى لا يخْشَى أن تظنّ به سوءًا لوْزَارَ صقليةَ بغيرِ إذنِك .

ولم ينمِ الملكُ رُوجَر الثانِى ليلتَه حتى أمْلَى رسالةً وجّهها إلى الشريفِ الإدريسِى فى سبْته ، حملتْها إحدَى سُفنه ، وعَليْها بِعْثَةٌ من رِجاله ، تُرَافِق الإدرِيسى وأهلِ بيته ، فى قدُومِه إلى صقلية .

مشــروع ملـكى

استقبلَ الملِك بنفسِه الشرِيفَ الإدْرِيسىّ على بابِ قصْرِه فى « بَالرْم » عاصمةِ صقلية . وصحِبَه إلى قاعَةِ عرْشِه ، وجلَسَا معاً فى مكانٍ آخر يتحدثانِ وحيديْن ، بعد أنْ



خلا لهُما المجلس . وقالَ له الملك رُوجَر فيما قال :

ـ أنْت من بيتِ خلافة . ومتَى كُنْتَ بينَ المسلمين عِمِل ملوكُهم على قَتْلِك . ومتَى كنتَ عِنْدِى أمِنْتَ على نفْسِك .

وسمِعا تسابِيحَ الفجر تتردَّد من مئذنَةِ المسجِد فى سماءِ « بالرم » فافتَرقا ، إلى لِقاءٍ آخرَ فى اليَوْم الجدِيد .

كان الملِكُ رُوجر قد أفرَد قصراً بخدمِه وحشَمِه ، ليقيمَ بِه الشريفُ الإدريسىّ هُوَ وأهلُه ، وأجْرَى عليهِ راتباً شهرِياً لا يَنَال مثْلَه سِوَى العظماء . وتعدَّدَتْ بينهما اللقاءَات ، وتوَالَتِ الأسابيعُ والشّهور ، والملِكُ لا يسْأم من الجلُوس إلى الشريفِ الإدرِيسى ، وحكاياتِه له عن أخبارِه ، وأسْفارِه ، والعجائِبِ التى شاهدَها فى رحْلاته . لكن الشريفَ الإدريسىَّ كان رجُلَ علم ، ولم يكنْ سمِيرَ مُلُوك ، فتاقَتْ نفسُه إلى الأسفار ، وتمنّى أن يُنْفِق الملك رُوجَرُ على أسفارِه ، ليؤلّف كتاباً كبيراً عن الممالِك والمدائِنِ ، وأقطارِ الأرض وأهلِها ، ويزوِّدَه بالخرائِط . وَبَاحَ الإدرِيسى بما فى نفسِه للملِك ذاتَ ليلة ، فقالَ لهُ الملِك رُوجَر :

ـ لا أُحِبّ أن أفارِقك وتفارِقنى . وأنتَ فردٌ واحد ، ومهْما سافرْتَ أو ارتحلتَ فسوْف تكونُ أخبارُك ومشاهداتُك

أخبارَ ومشاهداتِ رجلٍ واحد . أليْسَ كذلِك يا شريف ؟

فقال له الشريف الإدريسى :

ـ بلَى . لكننى لا أفْهَمُ ما ترْمِى إليه أيّها الملِك .

فقال له الملِك :

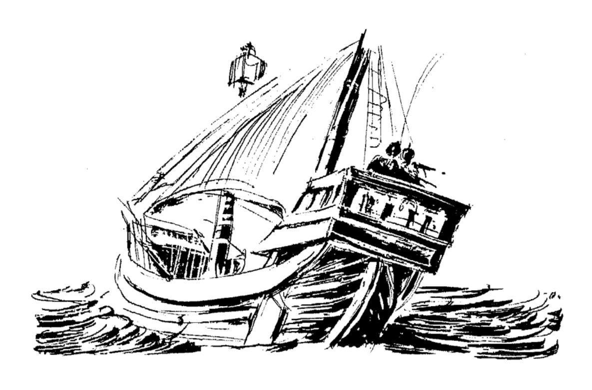
ـ ماذَا لو جَعلْت مائِةً يُسَافِرُون فى أرجاءِ الأرض ، بدلاً منك . ألا نعرِفُ أكثَرَ عنِ الأرض ، ونختصِرَ الوقْت ، ولا تُضَيِّعُ عشراتٍ من السنِينَ ، قد لا يتسِعُ لها عمرُك ولا عُمْرِى ؟

فقالَ الإدريسِى وقد تهلَّل وجهُه رضاً ، وراقَتْ لهُ الفكرة :

ـ بلَى أيّها الملك .

فقال لهُ الملِك :

ـ فاختَرْ من الرجالِ العلماءِ المحبّينَ للأسفارِ مائة ، ومعَهُم المصَّورُون من الرسّامين ، يرسُمُون لهم ما يشاهدُونَه من معالم الأرْض . ويجمعُون معاً مَا لَمْ يصِل إلى يدَيْك من الكُتُب عن بِلَادِ الدّنيا . ولا تحمِلُ همًّا للمال . ستكونُ لديْك مادةُ كتابِك بعدَ سِنينَ عشرٍ أو تزِيد ، وسيكُون لدىَّ ما أُرِيدُه من معارِفَ يحتاجُها المُلوك عن أُمَم الأرْض ، ودولِها ،



ومُلُوكها ، وثَرَوَاتِها ، وطُرُقِ المسافرين ، والمسَافات بيْنَ الأقطارِ والمدائِن .

أول بعثــة علميــة

وعكفَ الشريفُ الإدرِيسى أسَابيعَ ، يختارُ الرجالَ ، وأسَابِيعَ يُدَرِّبُهم على المشَاهدَةِ فى أرجَاءِ صقلية ، وعلى تصوِيرِ ما يَرَوْنه برسُومِهم . وحينَ اطمأنّ قلبُه أعْطَى الإشارةَ فانطلَقَ الرجالُ فى البَحْرِ إلى أصقَاعِ الأرْضِ . وربما كانَ هَؤُلَاءِ الرجال أوّلَ بعثَةٍ علمِيةٍ تجُوب ممالِكَ العالَمِ الوسِيطِ

فى القرْنِ الهجرىّ السادِس ، الميلادِىّ الثّانى عشر .

ولم يعُدْ للشرِيف الإدريسِىّ فى نهاراتِه من همٍّ ، سِوَى السّؤال عن البريدِ القادِمِ من رجالِ بعثتِه ، تحملُه السُّفُن القادِمَةُ إلى صقليّة من موانِى البِحَار .

وفى كلّ ليلةٍ ، تحينُ ساعَةُ لقائِهِ بالملِك روجر الثانى ، فيذهَبُ إليهِ على بغلتِه ، فيجدُ الملِكُ فى انتظارِه فى مجلسِه ، فينهضُ إليه مُرَحِّباً ومعانِقاً ، ويأبَى حين تحينُ لحظةُ الافتَراقِ إلا أنْ يُوَدِّعَه بنفسِه إلى بابِ قَصْرِه .

وتمرُّ السنين ، والإدريسى يجمَعُ معارِف رِجَالِه ، ويُرَتّبها ، ويُبَوِّبُها ، ويُعِيدُ صِيَاغَتَها ، وما تَزَالُ مهمةُ رِجَالِ البعثةِ مستمرةً ، ورسائِلهم تفِدُ إليه ، ومَعَها ما حَصَلوا عليه من كُتبِ التاريخِ والجغرافيا .

الثمـــار

أثمرت جُهُود الإدرِيسى ورجالُ بِعثَته كتاباً ضخماً عُنوانه : « نُزْهَةُ المشْتَاقِ فى اخْتِرَاقِ الآفَاقِ » ، وهو الكتابُ الذى طارَت به شهرتُهُ بين عُلَماءِ الشرْقِ والغربِ من الجُغرافيِّين ، على مَرِّ العصور .

وزَوَّد الإدرِيسى كتابَه بخريطَةٍ عامّةٍ للأرض ، وبسبْعَةِ خرائِطَ تمثّلُ أقالِيمَ العالَمِ السّبْعةِ المعروفَة آنذَاك . ورسَمَ فى خرائِطِه بدقّةَ الشواطىء والأنْهار .

وزادَ الإدرِيسىُّ فى خرائِطه ، فقسَّم كلًّا من الأقالِيمِ السبْعةِ إلى عشْرةِ أقسام ، تتجِهُ من الغرْبِ إلى الشرْق ، مَعَ خُطُوط الطّولِ ، ووضَع لها مجتمعةً سبعِينَ خريطةً أخرى .

وفى كلِّ هذِه الخرائِط ، حرص الإدرِيسىُّ العبقرىُّ على استخدَامِ خُطُوطِ الطولِ والعرْضِ ، فى تحدِيدِ الأماكِنِ والمواضِع ، والمسافاتِ ، التى وضَعَ أساسَها « الخُوارزْمِىّ » أبُو الرياضيات ، مثلما فعَل العالم « بطليموس » من قبلِه . وكانت خطُوطُ الطّولِ والعَرْض قد أهْمِلَت فى عملِ الخرائِطِ بعْدَ الخُوارزْمِى ، فجاء الإدرِيسِىّ وأحَياها ، وأكّدَها إلى الأبَد .

ومن بيْنِ هذه الخرائِط ، خريطةٌ هَامّة للإدرِيسى صوَّر فيها منابعَ النيّلِ العُلْيا ، آتِيَةً من بُحَيْرَاتٍ جنوبِىّ خطّ الاسْتِواء وكانَ الجغرافِيُّون قبْلَه يتخبَّطُونَ فى وصْفِ منابِعه ، وتعلِيلِ فيَضَانِه ، منذ أيّام المؤرخ « هيرودُوت » .

وفى هذِه الخرائِطِ جاءَ اعترافُ الإدرِيسى ، بكُرَوِيّةَ الأرض ، تَتْويجاً لِعِلْم المصَوَّرَاتِ (الخرائط) الجُغْرافِيةِ فى

العَصْرِ الوسيط . وصَارَت هذِه الخرائط نَمُوذَجاً لأهمِّ أطلَسٍ مأثورٍ فى عِلْمِ رَسْمِ الخَرَائِطِ العربيةِ ، بلْ وأَهَمّ أَثَرٍ لعِلْمِ الخَرَاطِ الجُغْرَافِيةِ شَرْقاً وغرْباً ، فِي العَصْرِ الوَسِيط .

كرة من فضـــة

كانت قد مضَتْ فى إعدادِ مادّةِ كتابِ « نُزْهةُ المشتاق » وخَرَائِطه خمسَ عشْرَةَ سَنَة . وقدّم الإدريسى كتابَه إلى صديقِه الملكُ روجَر الثّانِى ، وهُوَ عَلَى فراشِ مرضِه ، يُعَانِى فى العامِ الأخير مِنْ عُمْرِه من مرض عُضال (مُزمن) فرَاقَ لهُ ، وفَرِح به .

وعَرَض الإدرِيسىُّ على الملِك رُوجر الثانى ، أن يَعْمَلَ لهُ نَمُوذَجا مُجَسّماً لِكُرَةٍ أرْضِيّةٍ ، عَلَيْها أقالِيمُ الأرْضِ بارزَةً ، وأنهارَها وبِحارَها غَائِرةً ، وكانَ رُوجَر صاحِبَ خَيَال ، فتخيَّل كرةَ الإدرِيسىِّ من الفِضّة ، عظِيمةَ الجِرْمِ ، ضَخْمة الجِسْم ، قائِمةً فى بُسْتانِ قصْرِه ، تسْطعُ فوقَها الشمسُ طَوَال النّهار ، وتنعكِسُ عليها أضواءُ القَمَرِ والمصابيحِ طَوَال اللّيْل ، وتَرُوع ببريقِها الناظِرَ لها من بَعِيد ، وتكونُ أثراً خالداً لذكرَاه ، بعد وَدَاعِه للدّنيا .

وأعْطَى الملكُ للإدريسى أرْبَعَةً وأربعينَ ألفِ دِرْهمٍ وثمانمائة دِرْهم ، من الفِضّة ، ليَصْنع لهُ بِها كرةً أرضِيَّة فضّية .

وأمَر الإدرِيسىُّ صَاغة « بالرْم » فصبّوا فيها صُوَرَ قارّاتِ الأرضِ بأقالِيمها وبحارِها ، وأنهارِها ، وطُرُقها وموانِيها ، وخطُوط طولِها وعرضِها . ونهضَتْ كرةُ الإدريسى قائمةً فى بستانِ القصْرِ الملكى .

ورأى الملِكُ روجر ، من نافذَةِ غُرْفتِه ، وهُوَ على سرِيرِه ، الكرةَ الأرضِيةَ الفِضّية ، تتألّق فى ضِياءِ الشمسِ ببُستان قصرِه ، فصاحَ دهشةً وتأثراً وفرحَة ، وكان الإدريسىّ واقفاً إلى جانبه ، فقالَ لهُ الملك :

ـ لم أكُنْ أتصورُ أنّنا نعيشُ على أرْضٍ مثلَ هذِه الكرة ، حتى رأيتُها باهِرَة أمَامَ عَيْنَىّ .

فضَحِك الإدريسىّ سعيداً ، وقالَ للملِك :

ـ إنّ العربَ فى الأندلُس ومصرَ ، يُعَلّمون الأولادَ فى المدارِس على كراتٍ أرضِية مُجَسَّمةٍ ، مثلَ هذِه الكرة .



حقائق وخرافات

وعكَفَ النسّاخُونَ على نسْخِ كِتَابِ « نزهة المشتاق » وخرائِطه ، وأشَاعَها الورّاقون والعُلماء والمسافِرُون فى أرجَاءِ الأرض .

كانَ كتاب « نزهة المشتاق » تجمِيعاً وافِياً لمعارفِ الأقدِمين الجُغْرافية ، معَ المعارِف المتداوَلَةِ فى عصْرِه ، مع المعارِف الجديدِة التى أضَافَها هُوَ من خلالِ مُشَاهَدَاته ، مع المعارِف التى جَمَعها علماءُ بِعْثَتِه العلمية ورسَّامِيها ، من أقْطارِ العَالَمِ الوَسِيط ، وأقالِيمه .

وكانَ الإدريسىّ أمِيناً فى نِسْبَةِ ما أخَذَه من المعارِفِ الجُغرافية القديمةِ إلى ذَوِيها وأصْحَابِها من العَرَبِ واليُونانِ والفُرْس .

ولم يخْلُ كتابُ « نزهة المشتاق » من رِوايةِ بعْضِ الخُرافات التى نَقَلها المؤلفُون والرحّالة عن الرواةِ أصحابِ الحكايات ، مثلَ حكاياتِهم ، عن فيلةِ الهِند الإناث التى تلِدُ أولادَها فى المياهِ الراكدة ، وعنْ شجرَةِ الوَقواق التى تثمِرُ أشجارُها نسَاءً بدلاً من الفاكهة ، وغيرِها من الحكاياتِ التى أسْرَفت فى سرْدِها كتبُ العجائب والغرائب العربيّة ،



مما يمكِنُ قبولُه كتُراثٍ فى الآدَابِ الشعبية لأمِمِ الأرْض ، ولا يتسِعُ له صدْرُ كتاب منْ كُتُبِ العِلم . وكانَ الإدريسى يتوقّف عند بعْضِ هذِه الحكايات ، ليذكُرَ أنّها مما لايقبلُه العَقْل ، ولعلّه حَرص على نقْلِها وتدوِينها فى كتابِه من قَبِيلِ الاسْتِطْرَاف ، وتخْفِيفِ جَفَافِ المعْلُومَاتِ العِلْمية ، طلباً للترويِحِ عن القارئين .

ولم يقِف الإدريسى فى كتابِه عاجِزاً ، أمامَ قُصُور المعلومات إلا فِى المعارِف التى أوْرَدها عن الهِنْد وأطرَافِ

آسْيا الشرقية ، وجنوبِ أفريقِيا ، فاكتفَى فيما ذكرَه عنْها بنقْلِ ما رَواه الرواةُ ، وما كتَبَه السابقُون .

وفى كتابِ « نزهة المشتاق » جاءتْ أوصَاف الإدْرِيسى للبلادِ متقصِّية ، تَتَبَّعُ تاريخَ البلَدِ الذِى يكتبُ عنه ، وعمرانَه ومجتمعَه البشرى ، وحالتَه الاقتصادية ، فهُو فى كتابِه مؤرخٌ وجُغْرَافِيٌّ فى وقتٍ واحد ، يتحدّث عن تاريخِ البلد ، وجِنْس سُكانِه ، وعمارتِه ، ومعابِده ، وأسْوَاقِه ، وحمامَاتـه ، وأبْراجِه ، وتجارَتِه ، وغلاّتِه ، ومَعَادِنه ، ونقْلِ الأخشابِ فى مياهِ الأنهارِ بِكُتَلِها ، دُونَ شَحْنها فى مَرَاكب ، مِثْلَما يتحدّثُ عن جغرافيتِهِ الطبيعية .

أوصـاف من المدائن

عن مدينةِ « قَلْصة » الإسْبانِيّة ، كتَبَ الإدرِيسىّ يقول :

« وقَلْصَة حِصْنٍ مَنِيع ، يتصِلُ به أجْبُل (جبال) كثيرةٌ ، بها شَجَر الصُّنوبَر الكثيرُ ، ويُقْطَعُ بِهَا خشَبُه ، ويُلْقى فى الماءِ فيحملُه إلى « دَانِيةَ » ، وإلى « بُلَنْسِيَة » فى البحرِ . وذلِك أنها تسِيرُ فى النهر من « قَلْصَة » إلى جزيرَةِ « شَقْر » . ومِن جزيرة « شَقْر » إلى حِصْن « قَالْيِيرَة » ، وتُفْرَغُ هُنَاك

على البَحْر ، فتُملأُ منها المراكب . . ولا تزَالُ عادةُ إرسَالِ الخَشَبِ فى النهر ، إلى جزيرَةِ « شَقْر » إلى « قالييرة » قائمةً إلى يَوْمِنا هَذا . . . » .

ويكتُبُ الإدريسىِ فى كتابِه عن مَيْلِ اليهودِ للعُزْلة ، وتكتُّلِهم فى أحياءَ ومُدُنٍ ، فيقول :

« ومدِينةُ « أَلِيسَانَه » بالأندَلُس هى مدينةُ اليَهود ، ولهَا رَبَض (ناحية) يسكنُه المسلِمون . واليَهودُ يسْكنُون بجَوْف المدينَة ، ولا يُدَاخِلُهم فيها مُسْلِمٌ البَتَّة ، ولليهودِ بها تحذُّر وتحصُّن » .

ويصفُ الإدرِيسى مدينَةَ « رُوما » ، وقد زَارَها أثْنَاءَ مُقَامِه بصقَلّيَة ، فيقُول :

« رُومَة على جانِبَى نهْرِ الصّفْر (التِّيبر) وهى مدينَةٌ مَشْهُورَة ، ومقَرُّ خليفَةِ النصَارَى المسمّى بالبَابا ، وعلَى جنوبِىّ خور (بحْر) البنادِقة (الأدرياتيك) . ودَوْرُ (طُول) سورِها أربعَةٌ وعِشْرُون ميْلًا ، وهو مبنىٌّ بالآجُرّ . ولهَا وَادٍ يشُقّ وسَط المدينةِ ، وعليْه قناطِرُ يُجَازُ (يُجتاز) عَليْها من الجِهَةِ الشرقيّة إلى الغربيّة . وامتدادُ كنيسَة رُومَه سُتّمائِة ذِرَاع فى مثلِه ، وهى مُسقّفة بالرّصَاص ، ومفرُوشةٌ بالرُّخَام ، وفيها

أعمدةٌ كثيرةٌ عظِيمة . وعلى يمينِ الداخِل من آخِرِ أبوابِها حَوْض رُخَامٍ عظِيم للمعموديَّة ، وفيهِ ماءٌ جارٍ أبداً . وفى صَدْرِ الكنيسَةِ كرسيٌّ من ذهب يجلِسُ عليْه البابَا . وتحتَه بابٌ مَصَفَّحٌ بالفِضّة ، يُدْخُلُ منه إلَى أَرْبعةِ أبواب ، واحداً بعدَ آخر ، يُفضِى إلى سِرْدابِ فيهِ بطُرس حواريُّ عِيسَى » .

صـــيد اللؤلؤ

ويصفُ الإدريسى فى كتابِه صيدَ اللؤلؤ فى جزيرَةِ « أَوَال » ، فيقول :

« وأهمّ جُزُر البحرْين جزيرَةُ « أَوَال » . وفى هذِه الجزيرةِ يسكنُ غاصَةُ اللّؤْلُؤ ، فى المدينةِ التى يصِلُ إليها التجارُ من جمِيع أنْحاءِ الأرضِ ، ومعهُم المالُ الوفِيرُ ، ويترقّبُون شهوراً طِوَالاً ، موسِمَ الغَوْص ، ويستأجِرُ التجارُ الغَاصَةَ مُقَابِلَ جُعْل (أجْر) مَعْلُوم ، يتفاوَتُ مَع جوْدَةِ الصّيْد ، واعتقَادِ التجارِ بمهارَةِ الغَاصَة ، ويكونُ الغَوْص فى أغُشْت (أغسطس) وشْتَنْبر (سبتمبر) وقَبْل هذَا إذَا كانتِ المياهُ صافِية . ويصطَحِب كلّ تاجِرِ الغَوَّاصَ الذى اكْتَرَاه (استأجره) وتخرُجُ المراكِبُ جماعةً من المينَاء فيما يَنِيف

(يزِيد) على مائتىْ دونج (سفينة صيد) وهى فُلْكٌ (سُفن) أكبرُ من الفُلْك العَادِى ، ويُقَسّم التجارُ سطْحها إلى خمْسٍ أو ستّ بَلَنْجات (أقسامٍ) مُنْفَصِلةً ، ومع كلّ غوّاصٍ رفيقٌ مُسَاعِد ، اسمه « المُصَفِّى » ، لهُ نصِيبُ فى الكِراء (الأَجْر) ويخرُج مع الغَاصَةِ أدِلّاء حُذّاق ، يعرِفُون المواضِعَ ، لأنّ للأصْدَافِ مواضِعَ تغْشاها ، تذْهَب إليها ، وتخرُج مِنْها حَسب الوقت ، وتَعْرِفها ، فإذا خرَج الغَاصَة من جزيرَةِ « أَوَال » قادَهم الدَّلِيلُ ، حتى إذا وصَلُوا إلى المواضِعِ المعلومةِ خَلَعَ الدلِيلُ ملابِسَه ، وغاصَ ، ونَظَر ، فإذَا وجَدَ المكانَ مناسِباً خرَج ، وأمَرَ بطىِّ الشّرَاع ، ورَمْىِ الأنَاجِر (الأهلاب) وكذلِك تفعَلُ بقِيّةُ الدّوانج (المراكِب) ويبدأ الغوّاصُون فِى العمل » .

ويُواصِلُ الإدريسى وصْفَ عمليةِ الصّيد ، منذ أنْ يسُدّ الغوّاصُ خياشِيمه ، ويحملُ سِكّينَه وكِيسَه ، والحجرَ الثقيلَ المعلّقَ بخيْطٍ رفيعٍ متين ، إلى أن يجذِبَ الخيْطَ فيُسَحب من قَعْرِ البحرِ إلى أعْلى ، حاملاً صيدَه من الأصْدافِ ، فيلبِسُ ملابسَه وينَام ، ويأخُذُ المصَفّى فى فتحِ المحارِ بحضورِ التاجِرِ الذى يجمَعُ اللؤلؤَ ، ويزِنه ، ويسجِّلُه فى زِمَام (دفتر) ويأكل الجميعُ قُبَيْلَ المغرِب ، وينامُون طُولَ اللّيْل ،

استعداداً لعملٍ شاقّ مقبلٍ ، فى يوْمٍ جدِيدٍ .

المغامرون الثمانية

ويروِى الإدريسى حكايةً غريبةَ عن فتية خرجُوا مدينةِ « لِشْبُونة » فى مُغَامَرَةٍ بحريةٍ لِكشْفِ بحرِ الظّلمات (المحيط الأطلسى) وما وراءَه من شُطْآن ، فيقولُ فى « نزهة المشتاق » :

« من مدينةِ لِشبُونة كان خرُوج الفِتْيَة فى ركُوبِ بحْرِ الظّلمات ، ليعرفُوا ما فِيه ، وإلى أيْن انتهاؤُه . . ولهمْ بمدينةِ لِشْبُونة ، بموضِعٍ قُرْبَ « الحَمّة » درْبٌ منسوبٌ إليْهِم ، إلى آخرِ الأبد ، وَذلِك أنّهُ اجتمع ثمانِيَةُ رجَالٍ ، كلُّهم أبناءُ عم ، فأنشأوا مركباً حمّالا ، وأدْخلُوا فيه من الماءِ والزادِ ما يكفِيهم لأشْهُر . ثم دخَلُوا البَحْر أولَ طاوُوس (هبوب) الرِّيحِ الشَّرْقية ، فجرَوْا بها نحْواً من أَحَدَ عَشَر يوما ، فوصَلُوا إلى بحرٍ غليظِ الموْج ، كدِرِ الروّائح . . قليلِ الضّوء فأيقنُوا بالتلفِ ، فردُّوا (حَوَّلوا) قلاعَهم فى الجِهَةِ الأُخْرَى ، وجرَوْا فى البحْرِ فى ناحِيةِ الجَنُوب اثنَىْ عشَرَ يوْماً فخرجُوا إلى جزيرَةِ الغَنَم ، وفِيها من الغَنَم

مالا يأخُذُه عدٌّ ولا تَحْصِيل ، وهي سارِحةٌ لا رَاعِي لَها ، ولا ناظِرَ إليها . فقصَدُوا الجَزِيرَةَ فنزَلُوا بها ، فوجدُوا عينَ ماءٍ جارِيَة ، وعليْها شجرةُ تِينٍ بَرِّى ، فأخذُوا من تِلْك الغَنَم فذبَحُوها ، فوجَدُوا لحُومَها مُرَّةً لا يَقْدِرُ أحَدٌ على أكْلِها ، فأخَذُوا جُلُودِها وسَارُوا مع الجنُوب اثْنَى عشَرَ يَوْما إلى أنْ لاحَتْ لهُمْ جزِيرَةٌ ، فنظرُوا فيها إلى عِمارَةٍ وحَرْث ، فقصَدُوا إليها ليرَوْا ما فِيها ، فما كانَ غيرَ بعيد ، حتّى أُحِيطَ بهِم فى زَوَارِقَ هُنَاك ، فأُخِذُوا وحُمِلُوا فى مركبِهم إلى مدينَةٍ على ضِفَّة البَحْر ، فأُنْزِلُوا بها فى دَارٍ ، فرأَوْا رِجَالاً شُقْراً ، زُعْرا شُعورُ رُءُوسِهم ، شعُورُهم سَبْطَة (مُرْسَلة) . وهُم طِوَال القُدُود ، وبِنِسائهم جمالٌ عجِيب ، فاعتُقِلُوا مِنْها فى بيْتٍ ثلاثةَ أيام ، ثُمَّ دَخَلَ عليْهِم فى اليَوْمِ الرابعِ رجلٌ يتكلَّم اللسَانَ العرَبِىّ ، فسألهُم عن حالِهم ، وفيما جاءُوا ، وأينَ بلدُهم ، فأخبرُوهم بكلّ خبرِهم ، فوعَدَهم خيْراً ، وأعلمَهُمْ أنّه تَرْجُمان الملِك . فلما كانَ فى اليومِ الثّانى مِن ذلِك اليوم أُحْضِروا بين يدَىِ الملك ، فسألَهم عما سألَهم عنه التَّرجُمان ، فأخبرُوه بما أخبروا بهِ التَّرجُمانَ بالأمْسِ ، من أنّهم اقتحمُوا البحرَ ليرَوْا ما بِه من الأخبارِ والعَجَائب ، ويقِفُوا على نِهَايَتِه . فلمَّا علِم الملك ذلِك ضحِك ، وقالَ

للترجمان : خبِّر القومَ أنّ أبِى أَمَرَ قوماً من عبيدِه بركُوبِ هَذَا البحر ، وأنهمُ جَرَوْا فى عرْضِه شهْراً ، إلى أن انقطع عنْهُم الضَّوْء وانصَرفوا من غَيْرِ حاجَةٍ ولا فائِدَةٍ تُجْدِى ، ثُمَّ أمَرَ الملكُ الترجمانَ أن يَعِدَهُم خَيْراً ، وأن يَحْسُن ظنُّهم بالملِك ، ففَعَل . ثم صَرَفهم إلى موضِعِ حَبْسِهِم ، إلى أنْ بدَا جَرْىُ الرِّيحِ الغَرْبيّة ، فعُمِّر بِهِمْ زَوْرَق ، وعُصِبَتْ أعينهُم ، وجَرَى بهِم فِى البحرِ بُرْهة من الدهْر . قالَ القوم : قَدَّرنا أنَّه جَرَى بِنَا ثَلاَثَةَ أيامٍ بليَالِيها ، حتَّى جِىءَ بِنَا إلى البَرّ ، فأُخْرِجْنا ، وكُتِّفْنَا إلى خَلْف ، وتُركنا بالسَّاحل ، إلَى أنْ تَضَاحَى النّهار ، وطَلَعَتِ الشّمْسِ ونحنُ فى ضَنْك وسُوءِ حَالٍ مِنْ شِدْة الأَكْتَاف ، حتَّى سَمِعْنا ضَوْضَاءَ وأَصْوَاتَ ناسٍ ، فصِحْنا بأجمَعنا . فأقْبَلَ القومُ إليْنا فوجَدُونا بتِلْك الحَالِ السَّيِّئَة ، فحَلُّونا من وَثَاقِنا ، وسَأَلُونا ، فأخبرْنَاهم بِخبَرِنا ، وكانُوا بَرَابِر . فقالَ لَنَا أحدُهم : أتعلَمُون كم بيننَا وبيْنَ بلَدِكم ؟ فقُلْنا : لا . فَقَال : إن بينَكم وبَيْن بَلَدِكم مَسِيرَة شهريْن . فقالَ زعِيمُ القَوْمِ : واأسَفَى . فسُمِّى المكانُ إلَى اليومِ « أَسَفَى » ، وهو المرْسَى الذى فى أقْصَى المغْرِب . . » .

وهذِه القصَّة رَوَاها المسْعُودِىّ فى كتابِه « مُرُوج

الذَّهب » ، قبلَ الإدرِيسى بقرنيْنِ من الزّمَان .

العُـزْلة

عام ألف ومائة وأربعة وخمسين ميلادية ، أسلم الملك رُوجر الثانى رُوحُه إلى خالِقها ، وحَزِن عليهِ الشريفُ الإدرِيسى حُزْنا شديداً ، ألزمه بيتَه شُهُوراً .

وتولّى المُلك من بعْدِ أبيه الملكُ « غاليام الأول » . وخَشِىَ الإدرِيسى على مكانَتهِ فى بلاطِ القصْرِ النّورْمَانى ، فألّفَ كتاباً فى الجغرافيا ، هو « رَوْض الأُنْس ونُزْهَةُ النّفْس » ، وهُوَ الكتابُ المعروفُ باسْمِ : « المسالك والممالك » . وكان هَذَا الكتابُ تلخيصاً لكتابةِ : « نُزْهَةُ المشْتَاق » . وأهْدَى الإدرِيسى كتابَه إلى الملِك « غاليام » تَقَرّباً إليه .

ولمْ يَمُدّ الملِكُ غاليامُ يدَه بسوءٍ إلى الإدْرِيسى ، لكنّ الإدْرِيسى لم يعُدْ بِنفس المنزلةِ التى كانتْ له فى القصْرِ النّورْمانى ، فاعتكَف فى قصْرِه بضعْ سنين ، ألّفِ فيها كتابيْه الآخريْن : « الجامِعُ لصفاتِ أشْتَات النّبات » ، وهوَ الكِتَابُ

الذى أفَادَ منه « ابنُ البَيْطار » فوائِدَ كُبْرى ، و : « الأدويةُ المفردة » ، وهو كتابٌ أشَارَ إليه ابن أبِى أصيبعة فى ترجمتِه لسِيرةِ الإدرِيسى ، بموسُوعَتِه « طَبَقَاتُ الأطِبّاء » . وما يزَالُ هذَا الكتابُ من الكتُبِ العربيّةِ المفقودةِ ، فلمْ يعثُرْ عليهِ أحَدٌ بعْد . وأخَذَ يَقْرض الشِّعْر .

ثورة على القصر

ومضت ستٌّ سنواتٍ بعد رحيلِ الملك روجر عن الدّنيا ، وجاءَ عامُ ألفٍ ومائةٍ وستينَ ميلادية ، وشبّت فى « بالرم » ثورةٌ عارِمَة ، ضدّ الملِكِ « غاليام » ، نَهبَ فِيها الثُّوّار القصْرَ النورْمَانِىّ ، ودَمّرُوا كُرَةَ الإدْرِيسىّ الفضِّية ، وأخَذُوا أجزاءَها أمَامَ عينيْه ، وكَان قد بلغ من العمر إحدَى وسِتّين سَنَة .

عادَ الإدرِيسى حزِيناً إلى قصْرِه يفكّر فى العَوْدة إلى سَبْته ، ورُبّما كان قد عادَ إليْها ، ورُبما بقِىَ فى صَقَلِية ، فلا أحَد من المؤرّخِين يعرِفُ وجْهَ الحقِيقَة .

وعَكَف الإدرِيسى مرةً أُخْرَى على كتابِه « الجامع لصفات أشتات النبات » الذى ساقَ فيهِ أنْوَاعَ الأشْجَار



والثِّمارِ ، والحشَائِش والأزهارِ ، والحيوانات والمعادن ، وأخَذَ يُرَتِّبُها على حُرُوفِ أبجد هوّز ، وسَاق مُعْجَماً لأَسْمَائِها بالسّريانية واليُونانية والفَارِسية واللاتينية والبربرية ، وكأنّه كان بهذِه اللغاتِ من العَارِفين .

تجاهل وإدانة

وطَوَال قُرُون عانتْ ذِكْرَى الإدرِيسى الكثيرَ من تجاهُلِ المؤرخِين العرب ، وبينهُم معاصِرُوه ، لفَضْلِه ، ورُبّما تحدّثُوا عنْ بعْضِ أعمالِه متجاهِلين ذكرَ اسمه ، بقولهم : « صاحب نزهة المشتاق » ، وبيْن هَؤُلَاءِ المتجاهلِين للإدرِيسى كانَ المؤرِخ « المقْرِيزِى » ، و « ياقوت الحموِىّ » ، ولم ينصِفْهُ حَقًّا بذكْرِ اسمِهِ سِوَى « ابن خلدون » ، والأديبُ الشاعِرُ « صلاح الصفدى » فى ترجَمَتِه لهُ بكتابِه : « الوافِى بالوفَيات » .

ويُرجِع المستشرِق الفرنسِى « كاترمير » السبَبَ فِى هَذَا التجاهُل إلى أنّ المسلمينَ لم يكُونُوا راضِينَ عن اتصَالِ الإدرِيسى بالملكِ النورْمَانى روجر الثانى ، ولا عَنْ دخُولِه فى خِدْمته . وأرْجَع آخرُون السببَ فى هذَا التجاهُل إلى أنّ

الإدرِيسى قد عاشَ فى رِعَايَةِ النّورْمان ، فى وقْتٍ كان فيهِ الصليبيّون والفِرنجة يشنّون حُرُوبَهم الشّعوَاءَ على المسلمين فى المشرِق ، ويعملون على طرْدِهم من الأندَلُس . وكانَ من أهمَلُوا ذكْرَا الإدرِيسى يعرفُون اسمَه ، ويقدّرون فَضْله ، ولا ينكرُون عليه عِلمَه .

أول طبعة عربية

وفى الوقْتِ الذى أهْمَل فيهِ العرَبُ عالِمهَم ، عرَفَ الغربيّون قدْرَه فى الجغرافيا وعَمَلِ الخرائط وأَدَبَ الرحْلات ، فترجمُوا « نُزْهَةَ المشتاق » إلى لُغَاتِهم ، وأعادُوا نشْرَ خرائِطِهِ ، وحقّقوا جوانِبَ « النزهة » المتعدّدَة ، وقارَنوا بينَه وبيْنَ غيرِه من كبَارِ العُلماءِ الجغرافيينَ فِى الغرْب ، وأولُهم « بطليموس » .

وكانَ الألمانُ أكثَرَ الأوربيّين اهتماماً بالإدْرِيسى كتابةً عَنْه ، ونشْراً لخرائِطِه ، ولأجزاءَ من كتَابِه ، ويلحَقُ بهمْ عديدٌ آخرُون ، من المستشرِقين الأسْبَان ، والروّس ، والفِنلنديين ، والفِرنسيين ، والنمساوِيين ، والسّويديين ، والايطاليين الذين كان لهم الفَضْل فى إصْدَارِ أوّلِ طبعَةٍ من كتاب « نُزهة



المشتاق » فى مطبعة « الميدتشى » بروما ، فى خِتّام القرْنِ الميلادِىّ السادِس عشَر ، وهِى أقدمُ طبعةٍ أوروبية ظهرت لهذا الكتاب ، بحروف عربية ، تلَتْها بالغربِ ، فى القرون التالية ، طبعات أخرى لأجزاء من « نزهة المشتاق » .

فى القرن العشرين

وفى العصْرِ الحديثِ وَجَدَ الإدرِيسىّ بينَ العرب من ينصِفُه ، بعْدَ أن توالَى رحِيلُ العُلمَاءِ العَربِ إلى الغَرْب ، وتتابَعت هِجْرَةُ العُقُولِ إلى العالَمِ الجدِيد . ولعَلّ خَيْرَ تَقدِيرٍ للإدرِيسى نالَه من العَرَب ، كانَ على يدِ العالِمِ الشيخِ « عبد المتعال الصعيدى » ، الذى كتَبَ عنهُ كواحِدٍ من المجدِّدِين فى الإسْلام ، بما قدّمه لعلْمِ الجُغرافيا والخرائطِ من أصَالةٍ وابتكارات ، جعلته بحقٍّ أبًا للجغرافيين العرب .

وقد أفرَدَ الأدِيب الراحِل « محمد عبد الغنى حسن » كتابا عن « الشريف الإدريسى » ، ساقَ فيهِ ما كتبَه المستشرِقُون عنه ، وعن كتابِه « نزهة المشتاق » وعن خرائِطِه ، وعدّوه أفضَلَ من ألّفَ فى الجغرافيا فى العُصُورِ الوسطى ، وبعضُهم لا يزَال يعتَبِرُ كتابَه أفْضَلَ مَرْجِع إلى يومِنا عن بعضِ أجزاء من الأرْض ، وبعضُهم يذكُرُ أنّه ليس هناك مؤلّف جغرافىّ حفِظ لنا معلومَاتٍ وفيرةً ذاتَ قِيمةٍ كُبْرَى ، عن أوروبا الشمالِيةَ والغربِية ، واسكُوتلندا ، وسواحلَ بحرِ الشمال ، وبلادَ البلطيق ، وبُولندا ، ورومانيا ، وشبهَ جزيرَةِ البلقان ، أرضاً وشعوباً ، واقتصَاداً وحياةً ، مثلما فَعَل

الإدرِيسى . وبعضُهم يذكُر أن كَشْفَ أمرِيكَا كانَ متعذّراً بدُونِ ارتقاءِ عِلْمِ الجغرافيا على يدِ الإدرِيسىّ خاصةً ، بفضْلِ خرائِطه ، وآرائه النظريةِ عن الكُرَةِ الأرضِيّة .

●

وفى العراق ، بذل المجمَعُ العِلْمِىّ العراقِىّ ببغدادَ جُهْداً كبيراً ، لإِحْيَاءِ خريطَةِ الإدرِيسى عن الكرَةِ الأرضِية ، بإعادَة رسْمِها وطبْعها ، عامَ ألفٍ وتسعمائةٍ وواحِدٍ وخمسينَ ميلادِيّة ، نقلاً عَنْ خَمْسِ نُسَخٍ مُصَوَّرة لهذه الخريطةِ من كتابِ « نُزْهَة المشتاق » ، فى مكتبَاتِ بارِيس ، واكسفورد ، واستانبول ، وروما .

●

وما تزالُ صيْحةُ المستشرِق « جولدتسيهر » ، تدعُو العربَ فى كافّةِ أقطارِهم إلى طبْعِ كتابِ « نُزْهَةِ المشْتَاق » وخرائِطِه المصوّرة كاملةً ومحقّقة ، ولعَلّ هذِه المهمة هى واحِدةٌ من المهامِّ الكُبْرى فى نشْرِ التّراث ، ندعُو وزاراتَ

الثّقافَة العربِية ، والناشِرين العَرَب ، ومنظمةَ الثقافة العربية ، بالجامِعة العربية ، للنّهُوضِ بها .

●

فى عامٍ خمسمائةٍ وستّين هجرية ، ألفٍ ومائةٍ وخمسةٍ وستّين ميلادية ، ودّعَت رُوح الشرِيف الإدرِيسىّ دُنْيا البَشر .

واختلفَ المؤرِّخُون من بعدِه ، ولا يزالون مختلفين ، عن الموضِع الذِى وُورِيَ فيه جَسَدُ الإدرِيسىِّ الثّرى . وسواءٌ أكانتْ وفاتُه فى صَقَلية ، أمْ فى سَبْتِه ، فقدْ توسّد الشرِيف الإدرِيسى ، هُنَا أو هُناك ، باطِنَ أَرْضٍ جابَ أنحاءَها طولاً وعَرْضاً ، كاشِفاً النقابَ عن أسْرارها .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٨ / ٥٦٤٩

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر

علماء العرب

١٠

الإدريسى

أبو الجغرافيا الطبيعية والبشرية عاش فى القرن الميلادى الثانى عشر ، وأشرف من صقلية على أول بعثة علمية جغرافية عرفتها الدنيا ، فجاب رجالها أقطار العالم الوسيط، يجمعون المعارف عن الأرض وثرواتها وأهلها . وواضع أكثر من سبعين خريطة للأرض التى نعيش عليها . وصانع أول كرة أرضية من الفضة . إنها قصة تثير الفخار ، يقرؤها الصغار والكبار.

مركز الاهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الاهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الاهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الاهرام التجارية - قليوب - مصر